الباب السابع عشر

دليل الولاية

[سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصلهم إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه] .

قلت : الدليل هو الموصل للمطلوب ، فإذا صار الحق تعالى بك إلى ولىّ عارف به ودلك عليه ، فقد سار بك إلى معرفته ودلك عليه ، فمهما دلك على وليه ، وأطلعك على سره ، فقد دلك عليه قطعًا ، ووصلك إلى حضرته سريعًا ، فلم يجعل الحق سبحانه الدلالة على أوليائه ، والوصول إليهم إلا من جهة الدلالة عليه ، ولم يوصل أحدًا إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه ؛ فلأجل هذه الملازمة وعدم الانفكاك تعجب الشيخ من ذلك .

وقال شيخنا رضى الله عنه فى قول المؤلف رضى الله عنه : وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به قال : وصولك إليه وصولك إلى عارف به ، يعنى مهما وصلك إلى عارف به وأطلعك عليه ، فقد وصلك إليه ، ومهما حجبك عن العارفين به فقد حجبك عنه ، فلا طريق إلى معرفة الله إلا من طريق معرفتهم ، ولا دليل على الله ؛ أعنى على معرفته الخاصة العيانية إلا من حيث الدليل عليهم ، وكما حجب الحق سبحانه ذاته المقدسة بعزته وقهريته ، كذلك حجب أولياءه بما أظهر عليهم من أوصاف البشرية ، فلا يعرفهم إلا من سبقت له العناية الربانية ، إذ لا يعرف الخواص إلا الخواص .

قال فى لطائف المنن : أهل الله من خاصة عباده هم عرائس الوجود ، والعرائس محجوبون عن المجرمين ، فهم أهل كهف الإيواء ، فقليل من يعرفهم .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : معرفة الولى أصعب من

معرفة الله ، فإن الله معروف بكماله وجماله . ومتى تعرف مخلوقًا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب ؟

ثم قال : وإذا أراد أن يعرفك بوليّ من أوليائه ، طوى عنك شهود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته اهـ .

وأيضًا فإن الولى لا يعرف بالصورة الظاهرة ، وإنما يعرف بالمعانى الباطنة ، لأن الله لا يعبأ بالصور : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ » فى قسمه .

فمن أراد معرفته بالصورة فلا يعرفه ، لأنه لا يرى إلا بشرًا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، فالعين لا ترى إلا الأجسام الكثيفة التى يطرأ عليها ما يطرأ على أهل الحجاب ، ولم يدرك ما انطوت عليه الصورة من المعانى اللطيفة ، والأسرار المنيفة .

فمن أراد الله سعادته رزقه الاعتقاد والتصديق أولا ، ثم الهداية والتوفيق ثانيًا ، فالتصديق بأسرار الولاية أول المعرفة ، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن : التصديق بطريقتنا هذه ولاية .

وقال بعضهم : لله رجال لايعرفهم إلا الخاصة ، ولله رجال يعرفهم الخاصة والعامة ، ولله رجال لا يعرفهم لا الخاصة ولا العامة ، ولله رجال أظهرهم فى البداية وسترهم فى النهاية ، ولله رجال سترهم فى البداية وأظهرهم فى النهاية ، ولله رجال لا يعرفهم سواه ولا يطلع على ما بينه وبينهم إلا الحفظة الكرام ، الذين وكلوا بحفظ السرائر ، ولله رجال اختص الله بمعرفتهم لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلا الحفظة فمن سواهم حتى يلقونه ، فهم شهداء الملكوت الأعلى ، وهم المقربون ، وهم الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده ، وهم الذين طابت أجسامهم من طيب أرواحهم ، فلايعدو عليها الثرى حتى يبعثوا مشرقين بأنوار البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقى الأحد ، وهم المخفقون تحت حجاب الأنس المغموسون فى بحار المحبة والقدس ، ليس لهم مع غيره قرار ، ولا عن أنفسهم إخبار تولى الله شأنهم : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)[1] ا هـ .

قال الشطيبى : وهذه الأسرار التى انطوت عليها أسرار الأولياء واحتجبت عن العامة هى أسرار الملكوت الغيبية التى أشار إليها بقوله :

[ربما أطلعك على غيب ملكوته . وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد] .

قلت : الملكوت مبالغة فى الملك ، هذا باعتبار اللغة . وأما باعتبار اصطلاح الصوفية فالعوالم ثلاثة : ملك وملكوت وجبروت ؛ فالملك ما يدرك بالحس والوهم ، والملكوت ما يدرك بالعلم والفهم ، والجبروت ما يدرك بالبصيرة والمعرفة ، وهذه العوالم محلها واحد وهو الوجود الأصلى والفرعى ، وإنما تختلف التسمية باختلاف النظرة ، وتختلف النظرة باختلاف الترقى فى المعرفة ، فالوجود عند المحققين من العارفين : واحد قسم لطيف ، غيب لم يدخل عالم التكوين ، وقسم كثيف دخل عالم التكوين . فالأول يسمى عالم الغيب والثانى عالم الشهادة ، وما كان خفيًّا فى عالم الغيب ظهر فى عالم الشهادة ، فمن نظر إلى حسن الأشياء الظاهر سماه ملكا ، ويسمى أيضًا عالم الحكمة وعالم الأشباح ، ومن نظر إلى أسرار المعانى القائمة بالأوانى وهى أسرار الذات القائمة بأنوار الصفات سماه ملكوتًا ، ومن نظر إلى الأسرار الأزلية التى كانت حال الكنزية التى لم تدخل عالم التكوين سماه جبروتًا .

أو تقول : ومن نظر إلى الكفيف الذى دخل التكوين ورآه مشتغلا بنفسه قائمًا بقدرة الله سمى فى حقه ملكًا ، وهو لأهل الحجاب من أهل الفرق . ومن رآه نورًا فائضًا من النور اللطيف متصلا به إلا أنه تكثف بالقدرة وتستر بالحكمة سماه ملكوتًا ، وسمى اللطيف الباقى على أصله الذى لم يدخل عالم التكوين ، الذى هو أول كل شىء ، وآخر كل شىء ، ومحيطًا بكل شىء جبروتًا ، فإن ضم الفرع إلى أصله والكثيف إلى اللطيف سمى الجميع جبروتًا ، وهذه المعانى لا يفهمها إلا أهل الأذواق بصحبة أهل الأذواق ، وحسب من لم يبلغ لهذا المقام التسليم وإلا وقع فى الإنكار على أولياء الله ما لم يحط به علمًا .

---

(١) المائدة : ٥٦ .

ولنرجع إلى كلام الشيخ رضى الله عنه فنقول : ربما كشف الله عنك الحجاب ، وترقيت إلى الدخول مع الأحباب ، فأخرجك من سجن رؤية الأكوان إلى شهود المكون ، ومن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، فأطلعك على غيب ملكوته ، فأبصرت الكون كله نورًا فائضًا من بحر الجبروت ، فألحقته بأصله ، وفنيت عن شهود الملك الذى هو عالم الفرق بشهود الملكوت ، الذى هو عالم الجمع الذى قال فيه ابن البناء :

مَهْما تَعَدَّيْتَ عَنِ الأجْسامِ أَبْصرْتَ نُورَ الْحَقِّ ذَا ابْتِسَامِ

وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد رحمة بك ، لأنك قد تحجب بذلك عن شهود الملكوت ، فلا عبرة عند المحققين بمكاشفة أسرار العباد ، فقد تكون عقوبة فى حق صاحبها كما يأتى ، وقد يكون ذلك لمن لا استقامة له أصلا كالكهان والسحرة وغيرهم.

والغالب أن أهل شهود الملكوت يحجبون عن مكاشفة أسرار العباد ، لاشتغالهم بما هو أعظم وأحظى عند الله ، وإنما تكون هذه المكاشفات عند العباد الزهاد وأهل الرياضات والمجاهدات ، ولا تنكر أن تكون عند العارفين ، فقد تجتمع لهم المكاشفة والكشف ، أى مكاشفة أسرار العباد ، وكشف الحجاب عن الفؤاد ، إلا أن الغالب هو استغراق الروح فى شهود نور الملكوت ، دون الاستشراف إلى أسرار العباد، التى هى من عالم الملك .

وقد كان الشيخ أبو يَعزَى رضى الله عنه يطلع على سرائر الناس ويفضحهم ، فكتب إليه شيخه أبو شعيب أيوب المعروف بالسارية من أزمور يحذره من ذلك ، وينهاه عن هتك أستار المسلمين . فكتب له الشيخ أبو يعزى يجيبه : ليس هذا من قدرة البشر أن يسع أحد معرفة أسرار العباد وإخراج عيوبهم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، وإنما هو شىء يلقى إلىّ ويقال لى قل واسمع الخطاب ، أنت آية من آيات الله ، والمراد منك أن يتوب الخلق على يديك ، فتأخذنى غلبة ، وتستولى علىّ ملكة لاأقدر معها عن الكف عن القول اهـ .

وكان الشيخ أبو عبد الله التاودى يقول : ما قطعه الشيخ أبو يعزى فى ست

عشرة سنة قطعته أنا فى أربعين يومًا ولم يشم لطريقنا هذه غبارًا ، والله تعالى أعلم .

وكلهم أولياء الله نفعنا الله بذكرهم ، وليس قصدنا تنقيصَ أحد منهم ، وإنما مرادنا أن طريق المكاشفة ليس هى النهاية ، بل قال بعضهم هى البداية ، وبالله التوفيق .

وقد تكون وبالا فى حق المريد كما أبان ذلك بقوله :

[**من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية ، كان اطلاعه فتنة عليه وسببًا لجر الوبال إليه**] .

قلت : الاطلاع على أسرار العباد قبل التمكين فى الشهود ، والتخلق بأخلاق الملك المعبود ، فتنة عظيمة وبلية ومصيبة ، وذلك لأنه قبل التمكين من المعرفة قد يشتغل بذلك قلبه ويتشوش خاطره ولبّه ، فيفتّره عن الشهود ، ويفتنه عن الرسوخ فى معرفة الملك الودود .

وأيضًا مادامت النفس حية ولم يقع الفناء عنها ؛ قد يعتقد بذلك المزية على الناس فيدخله الكبر والعجب وهما أصل المعاصى ، فكان اطلاعه حينئذ على أسرار العباد سببًا فى جر هذا الوبال ، أى العقوبة إليه ، وهو التكبر على الناس واعتقاد المزية عليهم ، وهو سبب البعد عن الله ، بخلاف ما إذا تمكن فى معرفة الحق وتخلق بأخلاقه ، وتحقق بمعانى صفاته وأسمائه ، فإنه يكون على خلق الرحمن ، فإذا اطلع على معاصى العباد ومساويهم رحمهم وسترهم وحلم عليهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ ، وَأَقْرَبُكُمْ إِلَى اللهِ أَرْحَمُكُمْ بِعِيَالِهِ » .

وقال ﷺ : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فى السَّمَاءِ » .

وفى الإشارات عن الله سبحانه : عبدى إن استخلفتك شققت لك من الرحمانية شقًّا ، فكنت أرحم من المرء بنفسه .

وروى أن إبراهيم عليه السلام حدّث نفسه أنه أرحم الخلق ، فرفعه الله حتى

أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون ، فقال : يارب دمر عليهم ، فقال له الله تعالى : أنا أرحم بعبادى منك يا إبراهيم ، فلعلهم يتوبون ويرجعون .

وفى بعض التفاسير أنه كان يعرض كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى : (وَكَذٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيم مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ)[1] .

فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب على فاحشة فقال : اللهم أهلكه ، يأكل رزقك ويمشى على أرضك ويخالف أمرك ، فأهلكه الله تعالى ، فاطلع على آخر فقال اللهم أهلكه ، فنودى كف عن عبادى رويدًا رويدًا فإنى طالما رأيتهم عاصين .

وفى رواية أخرى : فأوحى الله إليه يا إبراهيم أين رحمتك للخلق ؟ أنا أرحم بعبادى منك ، إما يتوبون فأتوب عليهم ، وإما أن أخرج من أصلابهم من يسبحنى ويقدسنى ، وإما أن يبعثوا فى مشيئتى فأعفو وأعاقب ، يا إبراهيم كفر ذنبك فى دعوتك بدم قربان فنحر إبلا ، فنودى فى الليلة الثانية كفر ذنبك بدم فذبح بقرًا ، فقيل له فى الثالثة فذبح غنمًا ، فقيل له فى الرابعة كذلك فقرّب من الأنعام إلى الله ما بقى عنده ، فقيل له فى الخامسة فقال : يارب لم يبق لى شىء ، فقيل له إنما تكفر ذنبك بذبح ولدك ، لأنك دعوت على العصاة فهلكوا ، فلما شمر لذلك وأخذ السكين بيده قال : اللهم هذا ولدى وثمرة فؤادى وأحب الناس إلىّ ، فسمع هاتفًا يقول : أما تذكر الليلة التى سألت إهلاك عبادى ؟ أو ما تعلم أنى رحيم بعبادى كما أنت شفيق بولدك ؟ فإذا سألتنى إهلاك عبادى سألتك ذبح ولدك ، واحدًا بواحد ، والبادى أظلم اهـ .

---

(١) الأنعام : ٧٥ .

حظ النفس فى المعصية

ولما كان الاطلاع على أسرار العباد قد يدرك بكثرة الطاعات والاجتهاد ، فقد تقصد النفس بالطاعة هذا الحظ المدنى وهو مرض خفى ، نبه عليه الشيخ بقوله :

[حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما خفى صعب علاجه] .

قلت : حظ النفس فى المعصية هو متعة البشرية الظاهرة ، كلذة الأكل والشرب والنكاح وسماع اللهو ، وغير ذلك مما هو من أذواق الحس التى هى محرمة ، وحظها فى الطاعة هو طلب الكرامات ، وخوارق العادات ، والاطلاع على المغيبات ، وكحب الخصوصية والمنزلة عند الناس ، ومداواة هذا المرض الخفى من مداواة الأول الجلىّ ، لأن مداواة المرض الحسى الخفى أصعب من مداواة الجلى ، فكذلك المعنوى الباطنى ، ما كان جليًّا متعلقًا بالنفس أصعب مما كان خفيًّا متعلقًا بالروح . فالأول يمكن دواؤه بالعزلة ، والفرار من مواطن الأشرار ، وبصحبة الأخيار ، وبكثرة الطاعة والأذكار ، بخلاف الثانى فلا تزيده الطاعة إلا كثرة وقوة إذ بها صارت تطلب حظها فلا يداويها من هذا إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ، أو ولى عارف محقق ، يصحبه بالمحلة والتصديق .

قال بعضهم : من عسرت عليه نفسه فليسلمها إلى شيخ التربية . قال تعالى :

(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى) [1]

وإن عسرت عليكم أنفسكم فسترضع له نفسَه نفسٌ أخرى حتى يكمل أوان فطامها ، فإن لم يكن واحد من هذه مات وهو سقيم ، ولم يلق الله بقلب سليم .

فالواجب على العبد اتهام نفسه ومراقبة قلبه ، فإذا استحلت النفس شيئًا من

---

(١) الطلاق : ٦ .

الطاعات وألفته أخرجها إلَى غيرها ولو كانت مفضولة فى ظاهر أمرها ، وسيأتى للشيخ : إذا البتس عليك امران انظر آثقلهما على النفس ، فإنه لا يثقل عليها إذا ما كان حيًّا .

قال أبو محمد المرتعش : حججت كذا وكذا حجة عن التجريد ، فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبًا ، وذلك أن والدتى سألتنى يومًا أن أسقى لها جرة ماء فثقل ذلك علىّ فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحج كانت لحظّ وشوْب ، إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ما هو حق فى الشرع .

وقال الشيخ أحمد بن أرقم رضى الله عنه : حدثتنى نفسى بالخروج إلى الغزو ، فقلت سبحان الله إن الله تعالى يقول :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمارَةٌ بِالسُّوءِ)[1] .

وهذه تأمرنى بالخير ، لا يكون هذا أبدًا ، ولكنها استوحشت تريد لقاء الناس فتستروح إليهم ، ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم ، فقلت لها : لا أسلك العمران ولا أنزل على معرفة فأجابت ، فأسأت ظنى بها وقلت : الله أصدق قولا ، فقلت لها : أقاتل العدو حاسرًا بالرأى من غير وقاية فتكونى أول قتيل ؟ فأجابت ، ثم عد أشياء كلها أجابت لها، فقلت : يارب نبهنى بها فإنى لها متهم ولقولك مصدق ، فألهمت كأنها تقول إنك تقتلنى كل يوم مرات بمخالفتك إياى ومنع شهواتى ولا يشعر بى أحد ، فإن قاتلت وقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك ، ويتسامع الناس فيقولوا استشهد أحمد ، فيكون شرفًا وذكرًا فى الناس لى ، فقعدت ولم أخرج ذلك العام اهـ .

وقال الجنيد رضى الله عنه : ضاقت على نفسى ليلة حتى لم أطق الصبر ، فخرجت ذاهبًا على وجهى ، فانتهيت إلى رجل مطروح فى المقابر مغطى الرأس ، فلما أحس بى قال : أبو القاسم ؟ قلت : نعم ، قال : متى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت هواها صار دواؤها دواءها ؛ فقال لنفسه : اسمعى ، فقد أجبتك بهذا مرارًا وأنت تقولين حتى أسمع ذلك من الجنيد ، قال الجنيد فانصرفت وما عرفته اهـ .

---

(١)يوسف : ٥٣ .

ثم فسر الشيخ ذلك الدواء الذى يكون خفيًّا فى الطاعة ببعض جزئياته وهو أعظمها فقال :

[ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك] .

قلت : الرياء ، هو طلب المنزلة عند الناس وقصد ذلك بعمل صالح ، سواء كان ذلك العمل ظاهرًا للناس وهو الغالب أو خفيًّا عنهم ، فقد يكون الرياء فى العمل الخفى ، فيدخل الرياء عليك حيث لا ينظر إليك وهذا أصعب من الأول ، لأنه أخفى من دبيب النمل كما فى الحديث .

وكان بعض العارفين يقول : اجتهدت فى إزالة الرياء من قلبى بكل حيلة فما أزلته من جهة حتى نبت من أخرى من حيث لا أظنه .

وقال بعضهم : من أعظم الرياء من رأى العطاء والمنع ، والضرر والنفع من الخلق .

أقسام الرياء

وقال بعضهم : أقسام الرياء ثلاثة كلها علة فى الدين :

الأول : وهو أعظمها ، أن يقصد بعمله الخلق ولولاهم لم يعمل .

الثانى : أن يعمل للمدحة والثناء ولو لم يعلمه الناس .

الثالث : أن يعمل لله ويرجو على عمله الثواب ورفع العقاب ، وهذا النوع جيد من وجه معلول من وجه ، عند العارفين رياء ، وعند عامة المسلمين إخلاص ، وقد قيل فى قوله تعالى : (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[1] .

هو السالم من الرياء ظاهرًا وباطنًا ، بحيث لا يريد عامله حظًّا دنيويًّا ولا أخرويًّا .

---

(١) فاطر : ١٠ .

علامة المرائى

وللمرائى علامات لا تخفى : منها نشاطه فى الجلوة وكسله فى الخلوة ، أو إتقان العمل حيث يراه الناس وتساهله حيث لا يراه إلا الله . ومنها التماسه بقلبه توقير الناس له وتعظيمه ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه ، وإذا قصر أحد فى حقه الذى يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره ، ويجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره ، وإهانته وإهانة غيره من أقرانه ، حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم ، فيتوعدون من قصّر فى حقهم بمعاجلة الله لهم بالعقوبة ، وإن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ ثأرهم ، فإن وجد الفقير هذه الأمارات فى نفسه فليعلم أنه مراء بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس .

وقد روى عن على كرم الله وجهه : « إن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة : ألم تكونوا ترخص عليكم الأسعار ، ألم تكونوا تبادرون بالسلام ؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج ؟ » .

وفى الحديث الآخر : « لَا أَجْرَ لَكُمْ قَدِ اسْتَوفَيْتُمْ أُجُورَكُمْ » .

وقال عبد الله بن المبارك : روى عن وهب بن منبه رضى الله عنه : أن رجلا من العباد قال لأصحابه : إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، فنخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم ، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن سأل حاجة أحب أن تعطى له لمكان دينه ، وإن اشترى شيئًا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس ؛ فقال السائح : ما هذا ؟ قيل له : الملك قد أظلك ، فقال للغلام ائتنى بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجرة ، فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفًا ، فقال الملك : أين صاحبكم ؟ قالوا : هذا ، قالوا له : كيف أنت ؟ قال : كالناس .

وفى حديث آخر : فقال الملك : ما عند هذا من خير فانصرف عنه ، فقال السائح : الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى ذام ؛ ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار وعدوا أنفسهم من الأشرار ، كما روى الفضيل رضى الله عنه أنه قال : من أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إلى هذا ؟

وسمع مالك بن دينار امرأة تقول له يامرائى ، فقال : يا هذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة ، إلى غير هذا مما روى عنهم فى هذا المعنى ، ولا يسلم من الرياء الجلى والخفى إلا العارفون الموحدون ، لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك ، وغيب عن نظرهم رؤية الخلق ، بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة ، فلم يرجوا منهم حصول منفعة ، ولم يخافوا منهم وجود مضرة ، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس ، ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو مراء بعمله ، وإن عبد الله تعالى فى قنة جبل بالنون : أى أعلاه ، قاله الشيخ ابن عباد رضى الله عنه إلخ .

ومنها : أى ومن علامة الرياء الخفية أيضًا ، استشراف العبد ، وتطلعه أن يعلم الناس بخصوصيته كما أشار إليه بقوله :

[استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك] .

قلت : إذا خصك الحق تعالى أيها الفقير بخصوصية من خصوصية خواصه ، كزهد أو ورع ، أو توكل ، أو رضًا ، أو تسليم ، أو محبة ، أو يقين فى القلب ، أو معرفة ، أو أظهر على يديك كرامة حسية أو معنوية ، أو استخرجت فكرتك حكمًا أو مواهب كسبية أو لدنية ، ثم استشرفت ، أى تطلعت وتمنيت أن يعلم الخلق بخصوصيتك ، بأن يطلعوا على تلك الخصوصية التى خصك الله بها ، فذلك دليل على وجود الرياء الخفى فى باطنك ، ودليل على عدم صدقك فى عبوديتك ، بل أنت كاذب فيها ، إذ لو كنت صادقًا فى عبوديتك ، لاكتفيت بعلم الله وقنعت بمراقبته إياك ، واستغنيت به عن رؤية غيره .

فالواجب على الفقير إذا خصه الله بخصوصية كتمها وجحدها وسترها إلا عن شيخه ، فإن أظهرها فهو على خطر ، فقد يكون تحدثًا ، وقد يكون

تبجحًا ، وفى الكتمان السلامة ، وقد تقدم قول الشيخ : من رأيته مجيبًا عن كل ما سئل ومعبرًا عن كل ما شهد ، وذاكرًا كل ما علم فاستدل على وجود جهله ، وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

احْفُرْ لِسِرِّكْ وَدُكَّ فى الأَرْضِ سَبْعِينَ قَامَا
وَخَلِّ الخَلَائِقَ يَشْكُوا إلى يَوْمِ القِيَامَا

وكان بعض إخواننا إذا سئل : ما أدركتم وما ذقتم فى هذا الطريق ؟ يقول : البرد والجوع ، فكان شيخ شيخنا يعجبه ذلك ويستحسنه لدلالته على صدق الإخلاص . ومازالت أشياخنا وأشياخهم يستعملون الخراب فى ظواهرهم صونًا لما فى بواطنهم ، ولأجل هذا فضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين درجة ضعفًا كما فى الحديث .

وقال سيدنا عيسى عليه السلام : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته ويمسح شفتيه ، فإذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم ، وإذا أعطى أحدًا فليعط بيمينه ويخفيها عن شماله ، وإذا صلى احدكم فليسدل عليه ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه : كل من لم يقنع فى أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة .

وقال بعضهم : ما أخلص عبد قط إلا أحب أن يكون فى جب لا يعرف ، ولهذا كان إسقاط المنزلة شرطًا فى هذا الطريق ، فإن تحقق العبد بالمعرفة ومشاهدة الوحدانية ، جاز له الإخبار بالوحدانية بأعماله ، والإظهار لمحاسن أحواله بناء منه على نفى الغير وأداء الواجب من الشكر .

كان بعض السلف يصبح فيقول : صليت كذا وكذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة ، فيقال له : أما تخشى من الرياء ؟ فقول : ويحكم ، وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره .

والحاصل : من فنى عن نفسه وتحقق بشهود ربه فلا كلام عليه ، وقد قالوا : من أحب الخفا فهو عبد الخفا ، ومن أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن لم يرد غير ما أراد الله به فهو عبد الله حقًا .

ثم علمك الشيخ الدواء فى ترك الاستشراف إلى الخلق ، وهو الاكتفاء بنظر الحق فقال :

[غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ، وغيبُ عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك] .

قلت : الخلق فى التحقيق عدم والوجود إنما هو الله الواحد الأحد ، فوجود السوى كالهباء فى الهواء أو كظلال الأشخاص ، إن فتشته لم تجده شيئًا ، فغيب عنك أيها الفقير نظر الخلق إليك اكتفاء بنظر الحق إليك ، إذ لا نظر لسواه ، وغيب عن إقبالهم عليك بالتعظيم والتكريم ، بشهود إقبال الملك الكريم ، فغيب عن الوهم بثبوت العلم ، فإقبالك على الخلق إدبارك عن الحق ، وإدبارك عن الخلق إقبالك على الحق ولا يجتمعان .

وفى الحديث عنه ﷺ فى وصيته لابن عباس :

« احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَت عَلَى أَنْ يَنْفَعُوك بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ وَطُوِيَت الصُّحُفُ » .

وقال الشيخ أبو الحسن : أيست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى .

وقال فى لطائف المنن : اعلم أن مبنى الولى على الاكتفاء بالله ، والقناعة بعلمه ، والاعتناء بشهوده . قال الله سبحانه :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[1] وقال سبحانه : (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)[2] وقال : (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى)[3] وقال : (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ)[4] .

---

(١) الطلاق : ٣ .
(٢) الزمر : ٣٦ .
(٣) العلق : ١٤ .
(٤) فصلت : ٥٣ .

فسبيل أمرهم فى بدايتهم الفرار من الخلق ، والانفراد بالملك الحق ، وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال ، تحقيقًا لفنائهم ، وتثبيتًا لزهدهم ، وعملا على سلامة قلوبهم حتى إذا تمكن اليقين ، وأيدوا بالرسوخ والتمكين ، وتحققوا بتحقيق الفناء ، وردوا إلى وجود البقاء ، فهناك إن شاء الحق أظهرهم هادين إليه عباده ، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شىء إليه إلخ كلامه .

وقال سهل بن عبد الله : لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين : حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدارين إلا هو وخالقه ، فإن أحدًا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه . وتسقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه اهـ ولله در القائل :

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَكَ عَامِرٌ
وَبَيْنِى وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
وَلَيْتَ شَرَابِى مِنْ وِدَادِكَ صَافِيًا
وَشُرْبِى مِنْ مَاءِ الْمَعِينِ سَرَابُ
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ
وَكُلُّ الَّذِى فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

اعلم أن رضا الخلق غاية لا تدرك ، وانظر قضية لقمان مع ابنه وهى مشهورة ، يتبين لك أن رضا الخلق محال أو متعذر ، وأجهل الناس من طلب مالا يدرك .

وقال بعضهم : مالى وللناس ، كنت فى بطن أمى وحدى ، وخرجت إلى الدنيا وحدى ، ونموت وحدى ، وندخل قبرى وحدى ، ونسأل وحدى ، ونبعث من قبرى وحدى ، ونحاسب وحدى ، فإن دخلت الجنة دخلت وحدى ، وإن دخلت النار دخلت وحدى ، ففى هذه المواطن لا ينفعنى أحد ، فمالى وللناس اهـ بالمعنى .

وقيل : إن الولى الصادق لا قدْر له عند الخلق ، ولا قدر للخلق عنده ؛ فكلما عظم أمره عند الله خفى أمره عند الناس .

ثم إنه لا تتحقق الغيبة عن نظر الخلق بنظر الحق ، إلا بمعرفة الحق عند كل شيء ، وشهوده فى كل شيء كما أبان ذلك بقوله :

[من عرف الحق شهده فى كل شيء ، ومن فنى به غاب عن كل شيء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئًا] .

قلت : معرفة الحق هى شهود ربوبيته فى مظاهر عبوديته .

أو تقول : هى الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية .

أو تقول : هى الترقى من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح ، فيكون جسمك مع الأشباح وروحك مع الأرواح . قال فى المباحث :

وَاسْتَشْعَرُوا شَيْئًا سِوَى الأَبْدَانِ ... يَدْعُونَهُ بِالْعَالَمِ الرُّوحَانِى
ثُمَّ أَقَامَ الْعَالَمُ المعقُولْ ... مَعَارِفَ تُلْغَزُ بِالْمَنْقُولْ

والفناء : هو أن تبدو لك العظمة ، فتنسيك كل شيء ، وتغيبك عن كل شيء ، سوى الواحد الذى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىء)[1] وليس معه شيء .

أو تقول : هو شهود حق بلا خلق ، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق ، والمحبة أخذ الحق قلب من أحب من عباده ، فلا يكون له عن نفسه إخبار ، ولامع غير محبوبه قرار ، وقيل غير ذلك . فمن عرف الحق شهده فى كل شيء ولم ير معه شيئًا ، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح ، ومن شهود عالم الملك إلى شهود فضاء الملكوت ، ومن فنى به وانجذب إلى حضرته غاب فى شهود نوره عن كل شيء ولم يثبت مع الله شيء ولم يثبت مع الله شيئا .

---

(١) الشورى : ١١ .

العارف والفانى

والفرق بين الفانى والعارف أن العارف يثبت الأشياء بالله ، والفانى لا يثبت شيئًا سوى الله .

العارف يقرر القدرة والحكمة ، والفانى لا يرى إلا القدرة .

والعارف يرى الحق فى الخلق كقول بعضهم : ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه . والفانى لا يرى إلا الحق ، يقول : ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله .

العارف فى مقام البقاء ، والفانى مجذوب فى مقام الفناء .

الفانى سائر والعارف متمكن واصل ، ومن أحب الله لم يُؤْثر عليه شيئًا من حظوظه وهوى نفسه ، ولو كان فيه حتف أنفه ، كما قال القائل :

قَالَتْ وَقَدْ سَأَلَتْ عَنْ حَال عَاشِقِهَا
بِـاللهِ صِفْـهُ وَلَا تَنْقُصْ وَلا تَـزِدِ
فَقُلْتُ لَوْ كانَ رَهْنَ المَوْتِ مِنْ ظَمَإٍ
وَقُلْتِ قِف عَنْ وُرُودِ المَاءِ لَمْ يَرِدِ

والكلام فى المحبة طويل ، ذكر الشيخ فى لطائف المنن منه جمل صالحة ، وكلام الشيخ رضى الله عنه من باب التدلى ، فالمعرفة أعلى المقامات وقبلها الفناء ، وقيل للفناء المحبة : أى أولها ، فأول ما يقذف الله فى قلب عبده الذى يريد أن يصطفيه لحضرته ويعرفه به محبته ، فلا يزال يلهج بذكره ، ويتعب جوارحه فى خدمته ، ويتعطش إلى معرفته ، فلم يزل يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه الحق ، فإذا أحبه أفناه عن نفسه ، وغيبه عن حسه فكان سمعه وبصره ويده وجملته ، ثم رده إليه وأبقاه به ، فعرفه فى كل شىء ، ورآه قائمًا بكل شىء ، ظاهرًا فى كل شىء ، والله تعالى أعلم ، ولهذا الذى ذكره الشيخ علامات تدل على تحقيق تلك المقامات ، فمن وجدها فى نفسه كانت دعواه لتلك المقامات أو بعضها صحيحة ، ومن لم يجدها فى نفسه كانت دعواه لها كاذبة وفضيحة ، فليعرف قدره ، ولا يتعدّ طوره ، وبالله التوفيق .

ولما كانت المعرفة تقتضى ظهور الحق فى كل شىء حتى تراه ظاهرًا فى كل شىء بين وجه احتجابه وخفائه فقال :

[إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك ، وإنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار لعظيم نوره] .

قلت : ذكر فى حكمة خفائه تعالى مع شدة ظهوره ثلاث حكم :

الحكمة الأولى : شدة القرب ، ولا شك أن شدة القرب توجب الخفاء كسواد العين من الإنسان ، فإن الإنسان لا يدرك سواد عينه لشدة قربه منه ، والله تعالى أقرب إليك من كل شىء .

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد)[1] .

فشدة قربه منك موجب لاضمحلالك .

قال فى لطائف المنن : فعظيم القرب هو الذى غيب عنك شهود القرب .

قال الشيخ أبو الحسن : حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو ، وكلما دنا منها تزايد ريحها ، فلما دخل البيت الذى فيه المسك انقطعت رائحته عنه وأنشد بعض العارفين :

كَمْ ذَا تُمَوِّهُ بِالشِّعْبَيْنِ وَالْعَلَمِ ... وَالأَمْرُ أَوْضَحُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ
أَرَاكَ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَأَنْتَ بِهَا ... وَعَنْ تِهَامَةَ هٰذَا فِعْلُ مُتَّهَمِ

الحكمة الثانية : فى خفائه شدة ظهوره ، ولا شك أن شدة الظهور موجب للخفاء ، كما قال صاحب الهمزية :

* وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُور الْخَفَاءُ *

وقد مثلوا ذلك بقرص الشمس حين يعظم شعاعه ، ويتقوّى إشراقه ، فإن الأبصار الضعيفة لا تقوى على مشاهدته مع شدة ظهوره ، فصار شدة الظهور موجبًا للخفاء كما قال الشاعر :

---

(١) سورة ق : ١٦ .

وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَب أَنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

فاحتجب عن الأبصار الضعيفة بلا حجاب .

الحكمة الثالثة : شدة نوره ، ولا شك أن شدة النور موجب لعدم الإدراك ، فإن البصر لا يقاوم النور الباهر .

وفى حديث مسلم فى قصة الإسراء :

« قُلْنَا يَارَسُولَ اللهِ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ قَالَ نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ ؟ » .

بلفظ الاستفهام : أى غلبنى النور كيف أراه .

وفى رواية : « رَأَيْتُ نُورًا » .

فيحمل على أنه أول مرة رأى نورًا ، ثم لم يطق مشاهدته بالبصر مع تحقيق شهوده بالبصيرة ، وانظر أيضًا البرق الخاطف فإن البصر لا يطيق رؤيته ، وأنشدوا :

بِالنُّورِ يَظْهَرُ مَاتَرَى مِنْ صُورَةٍ
وَبِهِ وَجُودُ الْكَائِنَاتِ بِلَا امْتِرَا
لٰكِنَّهُ يَخْفَى لِفَرْطِ ظُهُورِهِ
حِسًّا وَيُدْرِكُهُ الْبَصِيرُ مِنَ الْوَرَى
فَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لَمْ تَجِدْ
شَيْئًا سِوَاهُ عَلَى الذَّوَاتِ مُصَوَّرَا
وَإِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ
فَبِذَيْلِ جَهْلِكَ لا تَزَالُ مُعَثَّرَا

وهذا النور الذى نتكلم فيه ليس هو حسيًّا ، وإنما هو ما يبدو من معان بالصفات والأسماء التى تخرج من ظلمة الجهل إلى معرفة أسمائه وصفاته ، قاله الشيخ زروق .

قلت : هو النور الأصلى الذى فاض من بحر الجبروت إلا أنه تستر بالحكمة والعزة القهرية .

سئل أبو القاسم النصراباذى عن قولهم :

وَيُظْهِرُ فى الهَوَى عِزَّ المَوالِى فَيَلْزَمُنِي لَـهُ ذُلُّ الْعَبِيـدِ

فقال : عز الموالى الستر ، لأنه لو انهتك الحجاب لتفطر الألباب .

وهذا آخر الباب السابع عشر .

وحاصلها ثلاثة أمور :

الأول : تلازم الدلالة على أولياء الله للدلالة على الله ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر فى الغالب .

الثانى : تفسير أسرار الولاية ، وهى الاطلاع على أسرار غيب الملكوت دون اشتراط الاطلاع على أسرار العباد ؛ لأن ذلك قد يكون فتنة فى حقه وسببًا فى عقوبته إذا لم يتمكن من معرفته مع ما فيه من حظ النفس . فربما تقصده بطاعتها فيكون رياء فى حقها ، وهو من الأمراض الباطنية التى يصعب علاجها كالاستشراف إلى اطلاع الناس على خصوصيته . ودواؤه الغيبة عنهم ، والاكتفاء بنظر الله عن نظر غيره .

الأمر الثالث : علامة وجود هذه الأسرار فى العارف ، وهى شهود الحق فى كل شىء ، وفناؤه عن كل شىء ، وإيثار محلته على كل شىء .

فإن قلت : كيف يشهده وهو غيب ؟ قلت : بل هو ظاهر فى كل شىء ، وإنما حجبه شدة قربه ، وشدة ظهوره ، وعظيم نوره ، وإذا علمت أنه قريب ، وأنه أقرب إليك من روحك وقلبك ، اكتفيت بنظره ، واستغنيت بعلمه عن طلبه ، فإن كان ولابد من الدعاء ، فليكن عبودية ومناجاة وتملقًا ، لا سببًا للعطاء ، كما أبان ذلك فى أول الباب الثامن عشر بقوله رضى الله عنه :